الرجوع إلى الحق

الحمـد للـه رب العـالمين، ولا عـدوان إلا على الظـالمين، والصـلاة والسلام على خير الورى وسيد البشـر محمـد بن عبـد اللـه الصـادق الأمين، صلى الله عليه وعلى آله الأطهار ما تعاقب الليـل والنهـار، صلاة وسلاماً أبديين متعاقبين مـا دامت السـماوات والأرضـين، أمـا بعد:

فالإنسان بشر، يعتريه الخطأ والنسيان، والضعف والقوة، ويقع منه الخطأ والمعصية، وليس ذلـك عيب، ولكن العيب هـو التمـادي فيـه، أما إذا عرف الحق ورجع إليه فهذه منقبة له، وممدوحة لحديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: ((كـل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون))1.

والمطالع لسير السلف الصالح رضـي اللـه عنهم يجـدهم ممن قلَّت أخطاؤهم، ومع ذلـك فهم أحـق النـاس بـأن يكونـوا ممن قـال اللـه تعالى فيهم: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ}[الأعـراف: 201]، هـذه المبـادرة إلى التوبـة، وتلـك المسـارعة إلى الرجـوع للحـق؛ هي ولا شـك خـير من التمـادي في الباطل استجابة لأهـواء النفـوس، ونزعـات الشـياطين، وتكـبراً عن الاعتراف بالخطأ لاسيما عند الخصومات.

اختلاف الطبائع عند كثير من الناس:

كثيراً ما تكون الطبائع التي لم تُهذّب سبباً من أسـباب زلـة القـدم، والوقـوع في بعض الخصـومات، والجـدال، ومن المعلـوم أن طبـائع الناس وأخلاقهم تختلف اختلافـاً كبـيراً بيِّنـاً، فمنهم السـهل ومنهم الحـزن، ومنهم المتواضـع ومنهم المتكـبر، ومنهم سـريع الغضـب قـريب الرجـوع إلى الحـق، فهـذه بهـذه، ومنهم من يكـون بطيء الغضب بطيء الفيئة فهذه بهذه.

لكن ممـا لا شـك فيـه أن خـيرهم بطيء الغضـب سـريع الفيئـة، وشرهم سريع الغضـب بطيء الفيئـة، الـذي لا يكـاد يقـر بخطـأ، أو يعترف بذنب، فيبـدي الأسـف، أو يبـادر بالاعتـذار، فنفسـه الأمـارة بالسوء قد غلبتـه وقهرتـه فلم تـدع لـه مجـالاً لسـرعة الرجـوع إلى الحق.

أخي في الله: اضـبط عواطفـك، وعـد إلى الحـق بسـرعة، فحبـل الخيرية بيدك أيهـا المـؤمن، ومـا عليـك إلا أن تضـبط عواطفـك فلا تغضـب ولا تسـيء، وإن لم تتمالـك نفسـك فلا يطـل عليـك الأمـد، ويـتراكم على قلبـك الـران، وإنمـا تفيء إلى دائـرة الحـق بسـرعة، وترجع إلى جادة الصواب على عجل.

ولم يخل مجتمع من المجتمعات من الخصومات والجدل، والنزاع مع خلق الله عز وجل، قد يكون مع أهله وزوجته وأبنائه، أو مع جيرانه، فعليه أن يلزم الحلم والصفح فإنهما صفتان عظيمتان، وقد امتدح الله عز وجل العافين عن الناس فقال: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[آل عمران: 134]، وقال: {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}[الشورى: 40]، وتعرض الأعمال يوميّ الاثنين والخميس فيغفر لكل مؤمن إلا المتخاصمين لحديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا))2، وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: ((تعرض أعمال الناس كل جمعة مرتين يوم الإثنين ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد مؤمن إلا عبداً كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقال: اتركوا هذين حتى يفيئا، أو اركوا هذين حتى يفيئا))3 ، وفي رواية عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام))4.

والمتوقع من المؤمن الصادق أنه يسرع في الرجوع والعفو والصفح، ويسابق إلى الصلح، أما من يلجُّ في الخصومة، ويغرق في التمادي فقد ثبت في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم))5، وفسره الإمام النووي رحمه الله فقال: "(الألد) شديد الخصومة، مأخوذ من لديدي الوادي وهما جانباه، لأنه كلما احتج عليه بحجة أخذ في جانب آخر، (الخصم) الحاذق بالخصومة، والمذموم هو الخصومة بالباطل في رفع حق، أو إثبات باطل"6.

بل إن من صفات المنافق أنه: إذا خاصم فجر لحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر))7، والفجور الميل عن الحق، والاحتيال في رده، وكم يكون عظيماً ذلك الذي يذل للمؤمنين، ويؤوب إلى الرشد، ويعجل إلى ربه، ويرجع ليرضى عنه.

ولقد ضرب أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه مثلاً رفيعاً في سرعة الفيئة حين علم أن مسطح بن أثاثة الذي يأكل من نفقة أبي بكر كان قد شارك في اتهام ابنته السيدة عائشة رضي الله عنه بحديث الإفك، فأقسم أبو بكر ألا ينفق عليه، فعن عائشة زوج

النبي صلى الله عليه وسلم قالت: "حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله مما قالوا، فأنزل الله: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ} [النور: 11]_ العشر الآيات كلها في براءتي، فقال أبو بكر الصديق -وكان ينفق على مسطح لقرابته منه -: "والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة"، فأنزل الله: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى}[النور: 22]_ الآية، قال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها عنه أبداً"8.

الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل:

وليس العيب الوقوع في الخطأ إذ ((كل بني آدم خطّاء، وخير الخطاءين التوابون))، وإنما تكمن المصيبة في الإصرار على الخطأ، والتمادي في الباطل، مع أن أبواب الرحمة مُفتّحة تدعونا لسرعة التوبة فعن أبي موسى رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها))9، وتستطيع تجاوز العقبة بأن تكون صريحاً مع نفسك، وتعترف بخطئك، وهذه بداية طريق التوبة والرجوع إلى الله، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه، وإذا كان ربنا يدعونا إلى سعة رحمته، ويقابل ضعفنا وإساءتنا بإحسانه؛ فما الذي يؤخرنا عن إصلاح أنفسنا، وما الذي يحول بيننا وبين الرجعة السريعة، والتوبة النصوح؟ وقد جاء في الحديث القدسي الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة))10.

أيها العبد المؤمن بادر بالتوبة إلى الله عز وجل، وإياك ثم إياك والتسويف.

إن الذي يحول دون التعجيل بالتوبة هو الوقوع في قيد الإصرار، ولقد بوب الإمام البخاري رحمه الله أحد أبواب كتاب الإيمان بقوله: "باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، وما يُحذر من الإصرار على النفاق والعصيان من غير توبة لقول الله تعالى: {وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[آل عمران: 135]"11، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله على هذا الباب: "وكأن المصنف لمّح بحديث عبد الله بن عمرو المخرج عند أحمد مرفوعاً قال: ((ويل للمصرّين الذي يصرّون على ما فعلوا وهم يعلمون))12 أي: يعلمون أن من تاب تاب الله عليه، ثم لا يستغفرون، قاله مجاهد وغيره"13، وصورة الإصرار هي العزم على معاودة الذنب، وعدم الإقلاع بالتوبة إلى الله منه،

والله أعلم.

فهل يختار المؤمن مصير الويل والهلاك أم يقـاوم هـواه ويسـتعلي على نزوات الشـيطان لينطلـق من قيـدها سـاعياً إلى رحمـة اللـه؟ فإذا أسـأت فأحسـن، وإذا أذنبت فاسـتغفر؛ لعـل عملـك يشـهد لـك بالسرعة في طاعة الله، وإذا أخطأت في حق أحد فبـادر بالاعتـذار، قبل فوات الأوان، وقبل أن تصل الروح إلى الحلقـوم، عنـد ذلـك لا ينفع الندم قال الله تعـالى: {**فَلَـوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُـومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ**}[**الواقعة**: 83-85].

أخي في الله: **أما ذكرت أنك ميت، وأن الموت لا مفر منه**.

هو الموت ما منه ملاذٌ ومهرب *** **متى حط ذا عن نعشه ذاك يركب**

نؤمـل آمـالاً و نبغي نتاجها *** **وعلَّ الـردى عمَّا نرجيه أقرب**

إلى الله نشكـو قسوة في قلوبنا *** **وفي كل يوم واعظ الموت يندب**

نسأل الله تعالى أن يبصرنا بعيوبنـا، وأن يرينـا الحـق حقـاً ويرزقنـا اتباعه، ويرينا الباطـل بـاطلاً ويرزقنـا اجتنابـه، إنـه على كـل شـيء قدير، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسـلام على نبينـا محمـد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

1 **سنن ابن ماجه** (2/1420) **برقم** (4251)، **وسنن الدارمي** (2/392) **برقم** (2727) **بإسـناد حسن؛ وحسنه الألباني في صحيح الترغيب الترهيب** (3/121) **برقم** (3139).
2 **صحيح مسلم** (4/1987) **برقم** (2565).
3 **الموطأ** (2/909) **برقم** (1619)؛ **وصحيح ابن حبان** (12/483) **برقم** (5667)، **وقال شعيب الأرنؤوط**: **إسناده صحيح على شرط مسلم؛ وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع** (2958).
4 **صحيح البخاري** (5/2256) **برقم** (5727).
5 **صحيح البخاري** (2/867) **برقم** (2325)؛ **وصحيح مسلم** (4/2054) **برقم** (2668).
6 **صحيح مسلم** (4/2054).
7 **صحيح البخاري** (1/21) **برقم** (43)؛ **وصحيح مسلم** (1/78) **برقم** (106).
8 **صحيح البخاري** (6/2458) **برقم** (6301).
9 **صحيح مسلم** (4/2113) **برقم** (2759).
10 **صحيح البخاري** (6/2694) **برقم** (6970).
11 **صحيح البخاري** (1/26).
12 **مسند أحمد بن حنبل** (2/165) **برقم** (6541)، **وقال محققو المسند**: **إسناده حسن**.
13 **فتح الباري ابن حجر** (1/112).